دراسات ليتورجيّة

الحياة الِّليتورجيَّة لكنيسة الإسكندرية[1] (٤)

القرن الخامس والقرن السادس للميلاد

مقدِّمة عامة:

ظلَّت الحضارة المصريَّة القديمة تُنازع البقاء حتى القرن الثَّالث الميلادي، وتضعضعت أساساتها في القرن الخامس الميلادي أيام البابا ثاؤفيلس البطريرك الثالث والعشرين (٣٨٤-٤١٢م)، ولم تلبث أن انهارت تمامًا مع غروب القرن السَّادس الميلادي. أي أنَّ المسيحيَّة حتى ذلك التاريخ لم تكن قد أصبحت عقيدة غالبة في مصر.

ولم يكن انهيار الحضارة المصريَّة القديمة هو فقط أحد أبرز سِمَات هذه الفترة، لأنه أيضًا في منتصف القرن الخامس الميلادي وإثر مجمع خلقيدونيَّة سنة٤٥١م، حدث انشقاقٌ بين الكنائس الشرقيَّة إلى كنائس شرقيَّة قديمة أو كنائس لاخلقيدونيَّة، أي لا تؤمن بمقررات هذا المجمع؛ وكنائس خلقيدونيَّة تؤمن بمقرراته. ومع حدوث هذ الانشقاق أفل نجم مدرسة الإسكندريَّة، وبعد حين اندثرت معالمها. فيغيب القرن الخامس وتغيب معه مدرسة الإسكندريَّة اللاهوتيَّة، وتدخل كنيسة الإسكندريَّة في عهودٍ مُظلمة، حتى يُخيِّم عليها الجهل في العصور الوسطى، باستثناء فترة بسيطة منها. فقد كان ازدهار الكنيسة اللاهوتي، مُقترنًا بازدهار مدرستها اللاهوتيَّة.

وإنَّ أحد أهم أسباب هذا التَّدهور في الكنيسة القبطيَّة، هو أنَّ كنيسة الإسكندريَّة قد عَبَرَت على ثلاث لغات، هي اليونانيَّة والقبطيَّة والعربيَّة. ففي أواخر القرن الخامس أُهْمِلَت اللغة اليونانيَّة، لغة الحضارة آنذاك، بعد الأحداث المؤسفة التي تعرَّض لها الأقباط من جراء مجمع خلقيدونيَّة، حيث رَفَض الأقباط كلَّ ما يمُتُّ إلى الرُّوم بِصلة، حتى لغتهم أيضًا، دون أن يُدركوا مقدار الخطإ الوخيم الذي وقعوا فيه، إذ عزلوا أنفسهم بأنفسهم عن ماضي كنيستهم ذاتها. فانفصلوا عن أساسيَّات لاهوت كنيستهم وعقيدتها وتعاليم آبائها والمُدوَّن كلُّه باليونانية، وانقطعت الصِّلة بين ماضيهم وحاضرهم، وباتوا كأنهم سيبدأون حياتهم الإيمانيَّة من جديد.

(١) نُتابع في هذا العدد تقديم موجز عن التاريخ الِّليتورجي لكنيسة الإسكندريَّة، وهو عن كتاب للراهب أثناسيوس المقاري، صَدَرَ بنفس الاسم، سنة ٢٠١٨م.

وكانت الضَّربة القاضية للُّغة اليونانيَّة مع خروج الرُّوم من مصر بعد دخول العرب إليها سنة ٦٤٢م.

وما إن أفاق الأقباط حينًا إلى لُغتهم القبطيَّة الوطنيَّة، حتى كان التضييق عليهم بمنع استخدامهم لهذه اللُّغة، والذي بدأ منذ أوائل القرن الثَّامن الميلادي، حتى تمَّ القضاء عليها في القرن الحادي عشر للميلاد. وباتت كلُّ مخطوطات الكنيسة وكتاباتها وتآليفها وحياتها اللّيتورجيَّة المُدوَّنة بالقبطيَّة – ومن قبل باليونانيَّة – طلاسم لا يستطيع فكَّها أبناءُ الذين كتبوها. فانعزل حاضر الكنيسة عن ماضيها، وهي أعنف محنة أدبيَّة يمكن أن يتعرَّض لها شعب من الشُّعوب، حين تفقد الأُمة صِلتها بماضيها. وكان على القبطي الرَّاغب في الرُّجوع إلى تراث آبائه، أن يقرأه بلُغةٍ أجنبيَّة حيَّة، فصار كمَن لا يستطيع أن يُقيت نفسه بنفسه، ويلتمس مَن يُعدُّ له الطعام ويُطعمه أيضًا. وهو في ذلك ليس له أن يختار ما يُقدَّم له، حُلوًا كان أمْ مُرًّا.

واكتملت المحنة، عندما صارت اللُّغة العربيَّة نفسها لُغةً غير مُتقَنة لدى كثير من الأقباط على مدى العصور التَّالية. فكانت هذه الضائقة الثُّلاثيَّة الأبعاد كفيلة بأن تقضي على حضارة أعرق أُمة في الأرض، وأقدمها على الإطلاق.

بعض سِمَات ليتورجيَّة القدَّاس الإلهي في القرنين الخامس والسادس للميلاد:

+ تحليل الخُدَّام، هو طقسٌ قديم في الكنيسة، اكتمل تمامًا بشكله الحالي منذ القرن السادس.

+ يُرفع البخور أثناء قراءة فصل الإنجيل المقدَّس. والذي يقرأ الفصل هو رئيس الشمامسة، ولابد أن يكون الكلُّ وقوفًا. وعند القراءة يقوم الأُسقُف عن كرسيِّه، وينزع التاج عن رأسه.

+ انتقال طقس القُبلة المقدَّسة من قبل تقديم الحَمَل، لتكون بعده (ومع ذلك، فقد ظلَّ مردُّ الشمَّاس في الكنيسة القبطيَّة، مُحافظًا على التَّرتيب الطَّقسي القديم لهذه الجزئيَّة من القُدَّاس الإلهي، حين يأتي النداء بالقُبلة المقدَّسة، ويعقبه النِّداء بتقديم القرابين).

+ تبلورت عقيدة تقديس القرابين بواسطة حلول الرُّوح القدس عليها لتصير قانونًا إفخارستيًّا في مصر، أيام البابا ثاؤفيلس الـ ٢٣ (٣٨٤- ٤١٢م).

+ دخول نصوص صلواتٍ جديدة على القدَّاسات القبطية، مُستعارة من الطَّقس السرياني أو الكبادوكي، مثل صلوات الصُّلْح، وصلوات الحجاب، وصلوات الاستعداد... إلخ.

+ لا يرفع الأُسقُف أكثر من ذبيحةٍ واحدة في اليوم الواحد، كما لا يجوز للمؤمنين التناول من

الأسرار المقدَّسة أكثر من مرة في اليوم الواحد.

+ لم تعرف كنيسة الإسكندرية لقب "بطريرك" (الذي ظهر أوَّلًا في مجمع خلقيدونيَّة). فمنذ عصر القديس كيرلس الكبير، كان الأب البطريرك يُلقَّب باسم: "رئيس الأساقفة"، في حين كان معروفًا في النص اليوناني باسم: "بطريرك المدينة العُظمى الإسكندريَّة".

+ لم تصبح التُّونية رداءً كنسيًّا رسميًّا إلَّا في بداية القرن الخامس مثل بقيَّة الملابس الكهنوتيَّة.
+ لم يكن هناك سجود ولا صيام من عيد القيامة إلى عيد البنتيقسطي.
+ عُرف عيد الميلاد، كعيدٍ مستقل عن عيد الإبيفانيا في أواخر زمن البابا كيرلس الكبير.

+ أوَّل ذِكْر واضح للصَّوم الكبير، كان في زمن البابا أثناسيوس الرسولي. وكان يمتدُّ إلى ٣٥ يومًا، ويعقبه ستَّة أيام صوم الفصح، فيكون مجموع أيام الصَّوم ٤١ يومًا، أي ستة أسابيع. ويتَّضح من رسائل البابا أثناسيوس الفِصحيَّة أنَّ يوم الجمعة العظيمة كان هو ختام الأربعين المقدَّسة. وفي الفترة التي أعقبت مجمع خلقيدونيَّة تمَّ إضافة أسبوع سابع للصَّوم الكبير، اقتداء بالكنائس الشَّرقيَّة الأخرى. حيث صار الصَّوم في كلِّ الشرق سبعة أسابيع. وإن ظلَّ التَّمييز واضحًا في كنيسة الإسكندريَّة بين ستَّة أسابيع للصَّوم الكبير، وأسبوع سابع لصوم البَصخة المقدَّسة.

+ مقدِّمة قانون الإيمان، والتي مطلعها: "نُعظِّمك، يا أم النور الحقيقي، ونمجِّدك..."، لا تعرفها غير الكنيسة القبطيَّة من بين الكنائس الشرقيَّة أو الغربيَّة. وغالبًا تمَّ وضعها في زمن البابا كيرلس الكبير، إبَّان فترة الصراع مع نسطور بطريرك القسطنطينيَّة، الذي رَفَضَ تسمية العذراء مريم بـ "والدة الإله" أو "أُم الله"، مُكتفيًا بأن يدعوها "أُم المسيح".

+ ظهر ما يُعرف باسم طقس اللِّخنين، أي "طقس إيقاد سراج المساء"؛ حيث يتم إحضار السِّراج في المساء من هيكل الكنيسة، ومن داخل المذبح المقدَّس، وفي هذا إشارة إلى حضور المسيح الروحي بين الجماعة، باعتبار المسيح هو نور العالم. وقد انتقل هذا الطقس إلى كنيسة مصر في القرن السادس الميلادي، فنقرأ في قوانين هيبوليتس أنه إذا عمل أحد الأراخنة وليمة أو عشاء للفقراء، فليكُن الأُسقُف حاضرًا وقت إيقاد السِّراج، وليقُم الشَّمَّاس ليوقِده. فيُصلِّي الأُسقُف عليهم، وعلى الذي دعاهم، ويصرفهم لينفردوا من قبل أن يكون الظَّلام، وليصنعوا مزامير من قبل مُضيِّفهم. ولقد حفظت الكنيسة القبطيَّة هذا الطَّقس البديع، وعاش فيها قُرابة ألف سنة، ولكنه للأسف اندثر فيها في القرون الأخيرة. **(البقية صفحة ٤٢)**